الفصل الأول

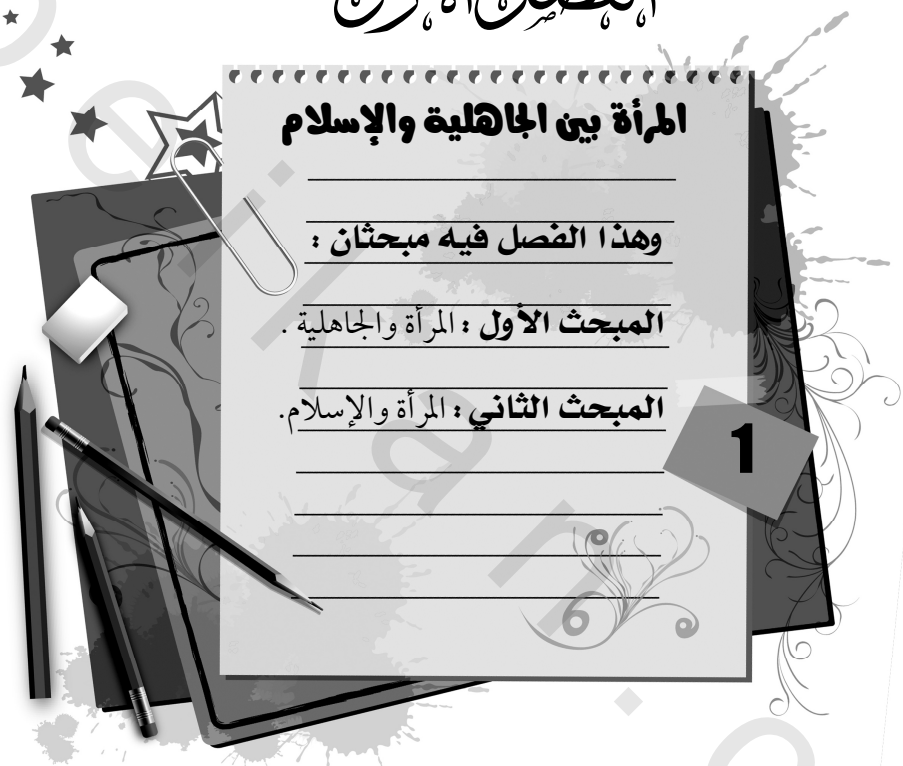

المرأة بين الجاهلية والإسلام

وهذا الفصل فيه مبحثان :

المبحث الأول : المرأة والجاهلية .

المبحث الثاني : المرأة والإسلام.

1

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

هذا الفصل نهدف به إلى إلقاء الضوء على وضع المرأة في الجاهلية ووضعها في الإسلام حتى تتميز الأشياء ، ويتضح الحق من الباطل ولتعلم المرأة – أولاً – ثم الذين يتباكون على حريتها وحقوقها – ثانياً – من أين تأتيها الإهانة والمهانة ، ومن أين تأتيها العزة والكرامة ، والحق الذي لا مرية فيه أن المقارنة بين الإسلام وغيره من الوضعيات تظلم الإسلام ، لأنها تضعه في موطن هو أعز منه وأكرم ، كما أن السيف يفقد شيئاً من عزته وكبريائه إذا قيل عنه أمضى من العصي ، بيد أن هذه المقارنات وأمثالها ، أصبحت أمراً لا مفر منه بسبب الجهل وطول الأمد على الممارسات المنحرفة ، والتقاليد البالية في قضية المرأة ، والتى تنسب إلى الإسلام ، والإسلام منها برئ براءة الذئب من دم الكريم عليه السلام ، ومن أجل ذلك كان لا بد من إظهار الجاهلية ، وتعرية أوضاعها ، وفضح ممارساتها ، وتقديم التصور الإسلامي في نقائه ووضوحه ، ليرى الذي بعينه رمد ، ويعلم الذي في قلبه مرض أين الثرى وأين الثريا.

هذا ويشتمل هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : المرأة والجاهلية .

المبحث الثاني : المرأة والإسلام.

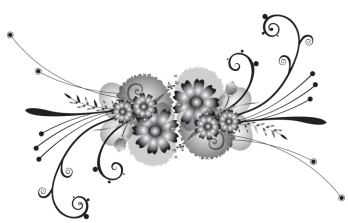

openkan.com

المبحث الأول
المرأة والجاهلية

تمهيد :

مسكينة هي المرأة ، لقد ظلمت كما لم يظلم غيرها ، وموروست ضدها ألوان شتى من الممارسات الخاطئة على مدار تاريخها ، ونحن نؤمن أن فترات الصحو والإشراق في تاريخ المرأة ترتبط بمدى قربها من الإسلام وتعلقها بأهداب الوحي ، وما وراء ذلك إنما هو جاهلية جهلاء ، تذوق المرأة فيها ألواناً من البؤس والخسف والشقاء ، ومن خلال مطالعة نصوص الوحي ووقائع التاريخ وممارسات الواقع يمكن أن نقسم فترات الضعف والضمور التى مرت بها المرأة في تاريخها إلى **جاهليات ثلاث** :

1- جاهلية ما قبل الإسلام.
2- جاهلية عصور التخلف.
3- جاهلية الحضارة الحديثة.

هذه الجاهليات الثلاث ينبغي أن نسلط الضوء عليها ، لإظهار عوارها ، وفضح ممارستها ضد المرأة. لنقدم الإسلام بعدها بتصوره الرباني الخالد ، وتشريعه الرائد حتى تتميز الأشياء ويظهر حسن الإسلام بقبح غيره من الأوضاع البشرية ، وهذه وقفة سريعة سوف أستعرض فيها صوراً ونماذج لأوضاع المرأة في الجاهلية لنرى بعدها كيف أحيا الإسلام المرأة من موات ، ورد إليها إنسانيتها السليبة ، وكرامتها الموءودة ، ووضعها في المكان اللائق بها كمخلوق مكرم ، وإنسان يحمل كغيره من بني جنسه أعباء الخلافة في الأرض.

أولاً : جاهلية ما قبل الإسلام .

هذه هي الجاهلية الأولى ، وهكذا سماها الوحي ووسمها القرآن الكريم ، حين خاطب نساء النبي ﷺ بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:33] ويعن لي – والله أعلم – أنه لا يراد بها ما كان عند العرب وحدهم من تصورات وأفكار تجاه المرأة ، وإنما تشمل كذلك ممارسات أخرى كانت تمارس ضد بنات حواء ، وهي تحاكى الجاهلية وتمثلها في التصور والرؤية ، وقبل أن ألقى الضوء

على وضع المرأة عند العرب في جاهليتهم الأولى ، هذا ضوء لا بد منه على وضع المرأة عند الأمم الأخرى[1]

1- **المرأة في حضارة الصين .**

في هذه الحضارة كانت المرأة تحتل في المجتمع مكانة هينة تصورها إحدى سيدات الطبقة العليا ، حين كتبت رسالة تصف فيها حال المرأة تقول فيها : نشغل نحن النساء آخر مكان في الجنس البشرى ، وكان مما يردده الصينيون في غنائهم : ألا ما أتعس حظ المرأة ، ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها ، لا يسر أحد بمولدها ، وإذا كبرت اختبأت في حجرتها ، تخشى أن تنظر في وجه إنسان ، ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها.

2- **المرأة في حضارة الهند .**

وعند الهنود يصور حال المرأة ما جاء تشريع مانو : إن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم سيدها – زوجها – كما لو كان إلها – وألا تأتي شيئا من شأنه أن يؤلمه ، وبناء على ذلك كانت المرأة تخاطب زوجها في خشوع قائلة : يا مولاي ، وأحياناً : يا إلهى ، وتمشى خلفه بمسافة وكانت لا تأكل معه ، بل كانت تأكل ما يتبقى منه.

3- **المرأة في حضارة اليونان.**

وفي اليونان – حتى في عصرها الذهبي – كانت المرأة تعيش في أعماق المجتمع ، مثل سقط المتاع ، حتى قال أحد مفكريهم : يجب أن يحبس اسم المرأة في البيت كما يحبس جسمها ، ويكفى تصويراً لمكانة المرأة عندهم ما قاله – ديموستين – خطيب اليونان الأشهر : إننا نتخذ العاهرات للذة ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسادنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ، وهكذا فالمرأة عندهم تنتقل من بيت أهلها إلى بيت سيدها – زوجها – لتؤدى مع الخدم مهمة واحدة هي الولادة والحضانة.

---

(1) هذه الصورة بتصرف من : الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة صـ 10 وما بعدها ، الشيخ البهى الخولي ط 1 دار البشير ، وكذلك محاضرات في الثقافة الإسلامية صـ 175 وما بعدها الأستاذ / محمد أحمد جمال ط 6 . دار الكتاب العربي.

4- المرأة في حضارة الرومان.

وعند الرومان كانت المرأة قاصرة لا تستقل بحقوق منفصلة عن زوجها ، فقد كان القانون الروماني يعتبر الأنوثة سببا من أسباب انعدام الأهلية ، كحداثة السن والجنون، ولم تكن المرأة تظهر في المحكمة ولو شاهدة ، وبلغ من سيادة زوجها عليها ، أنها إذا اتهمت في جريمة ، كانت تحال إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ، وكان أحياناً يحكم عليها بالإعدام في بعض التهم كالخيانة ، وإذا مات زوجها تدخل في وصاية غيره كابن ذكر ، أو أخ أو عم.

5- المرأة عند اليهود .

وعلى الرغم من كون اليهودية ديناً سماوياً ، فإن بعض مواريثهم الاجتماعية كانت تدعوهم إلى أن يعتبروا المرأة دون مرتبة الرجل ، والبنت دون منزلة أخيها ، وكانوا يسوونها بالخدم ، وكانت لا ترث مع إخوتها الذكور ، وكان لأبيها الحق في بيعها وهي طفلة أو دون البلوغ.

6- المرأة في المسيحية.

وفي ظل التصور الرهبانى المسيحي كانت المرأة منبع المعاصي والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هي سبب تحريكه وحثه على الإثارة ، وهي مصدر الشرور والآثام ، وحليفة الشيطان، وكان الفلاسفة ورجال الكنيسة يناقشون : هل المرأة مخلوق له روح كالرجل ، وهل تستحق الحياة مثله ، وقد انتهى أحد مؤتمراتهم إلى قرار يؤكد أن المرأة خلقت لخدمة الرجل ، وفي سنة 1805م كان القانون البريطاني يعطى الزوج الحق في بيع زوجته لآخر ، لكراهية أو ضيق ذات يد ، وتم إلغاء هذا فيما بعد.

7- المرأة عند العرب .

كان ذلك وضع المرأة عند الأمم قبل الإسلام ، وما نقلته صورة لا تحتاج إلى تعليق ، فهي تتحدث عن نفسها ، أما المرأة عند العرب في هذه المرحلة – ما قبل الإسلام – فندع الشيخ القرضاوي يصور ما كان من شأنها حيث يقول : كان الرجل يعتبر المرأة من سقط المتاع ، أو شيئا من الأشياء ، تورث كما تورث الدواب والأبقار ، وكان الرجل يرث أمرآة أبيه ، كما يرث بقره وغنمه ، ويتصرف فيها كما يشاء ، فإن شاء

تزوجها وإن شاء أمسكها ، حتى تعتق نفسها منه بمال أو غيره ، ولم تكن المرأة ترث إطلاقا لأن الذي يرث عندهم هو من يحمل السلاح ، ويدافع عن الديار ، ولأجل ذلك ما كانوا يورثون النساء والصبيان [1]، وكان العربي – عموماً – لا يرحب بميلاد الأنثى لأن المجتمع قبلي لا تهدأ فيه الغارات ، والمرأة في مجتمع كهذا لا تغنى شيئاً بل ربما وقعت في الأسر فعرضت نفسها وقبيلتها لذل الدهر وعار الأبد ، ولذلك – كما يصور القرآن – كان الرجل يغتم بمولدها ويتردد في أمره : أيمسكها على كره ومهانة ، أم يتخلص منها فيقتلها أو يدفنها حية بيده ؟ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا ﴾ [النحل:58،59] هكذا كانت المرأة قبل الإسلام ، وكان ذلك هو موقعها ، وبهذا تتضح الصورة ، وتظهر الجاهلية على حقيقتها ، وقد استمرت هذه الصورة المعتمة ، بظلالها القاتمة ، حتى جاء الإسلام فكان النور الذي أزال هذا الغبش ، والحق الذي محى من الوجود هذا الباطل.

جاهلية عصور التخلف.

وهذه الجاهلية تمثل مرحلة من مراحل الانحطاط في تاريخ المرأة ، وهي وإن كانت من الناحية التاريخية بعد الإسلام ، غير أنها في نظرتها للمرأة تنطلق من تصورات مريضة ، ومفاهيم خاطئة ، ووضع المرأة فيها يشبه إلى حد كبير وضعها في الجاهلية الأولى ، ورغم كونها تاريخياً تأتى بعد ظهور الإسلام ، إلا أن الإسلام برئ منها ومن ممارساتها – وإن كانت تنسب زورا وبهتانا إلى الإسلام – وهذه الجاهلية يمثلها في ثقافتنا تيار موجود وله وجود ، ينادى بحبس المرأة بين جدران أربعة فلا تخرج من محبسها إلا مرتين : مرة إلى زوجها ومرة إلى قبرها.

ممارسات خاطئة في عصور التخلف.

شهدت المرأة في هذه المرحلة من حياتها – كما في الجاهلية الأولى – واحدا من أسوأ عصورها فكراً وتصوراً ، ممارسات وسلوكاً ، فقد امتهنت عقلاً وفرض عليها الجهل ،

(1) انظر : مسلمة الغد ص 30 ط 2 ، دار الوفاء. بتصرف .

وظلمت إنسانة وفرضت عليها العزلة ، وبدون مبالغة عزلت عن الحياة وعن الدين وعن الدنيا ، فقد حرمت من حقها في التعليم ، لم يعلمها أبوها ، وكيف يعلمها وقد كان هو في حاجة إلى من يعلمه ؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولذا لم يستطع الأب ولا الأخ ولا الزوج أن يعلموا المرأة ، وقد حرمت كذلك من الذهاب إلى المسجد – وكان منفذها الوحيد – تزكي نفسها ، وتنعش روحها ، وتثقف عقلها ، وهذا يعنى أنها بقيت في عزلة تامة ، وجهالة عامة ، لا تعرف لزوجها حقاً ، ولا لأولادها واجباً ، ولا لأمتها ودينها دينا يجب أن يقضى ، وقد ظلت المرأة في تلك المرحلة عاجزة عن تربية أولادها تربية صحيحة ، فكانت تخوفهم من الغول والعفاريت ، وتحكى لهم قصصاً وخرفات ، تسئ إليهم وإلى عقولهم وتصوراتهم الغضة ، مما أحدث خللاً في النشء لا زالت الأمة تعانى منه حتى يومنا هذا.

تقاليد بالية.

ومن الممارسات الخاطئة في عصور التخلف فيما يخص المرأة ، منع الخاطب من رؤية مخطوبته ، مجرد الرؤية مع ورود الأمر النبوي بذلك ، لأنه أحرى أن يؤدم بينهما ، وقد نتج هذا عن الممارسات والتقاليد التى تنسب إلى الإسلام وليست منه ، بل الأدهى من ذلك أنه في بعض الأماكن على خارطة العالم الإسلامي كان العاقد يمنع – وهو زوج شرعي – من رؤية زوجته التى عقد عليها ، فلا يراها إلا في ليلة الزفاف ، والمفارقة العجيبة في ذلك ، أنها يسمح لها بالذهاب إلى الجامعة والمدرسة والسوق ، وقد تسافر إلى أماكن مختلفة من بلاد العالم ، ويراها الناس كل الناس ، ما عدا هذا الزوج المسكين ، الواقع ضحية أمام سكين العادة ، وخنجر التقليد ، والصورة المقابلة لهذا التنطع في زمن التخلف كانت السماح لهما – للمخطوبين – بالخروج إلى أى مكان دون محرم ، والسفر إلى أي بقعة ، وهو ما زال أجنبياً بالنسبة لها ، وهكذا تضيع المرأة بين التيارين تيار المتنطعين ، وتيار المتسيبين[1] .

صوت المرأة .

ومن الممارسات الخاطئة التى ظلمت المرأة في عصور التخلف – وهو ما تبناه تيار التشدد في ثقافتنا – القول بأن صوت المرأة عورة ، فلا يجوز لها أن تكلم رجلاً ولا أن

(1) انظر : أمتنا بين قرنين صـ 155 د/ يوسف القرضاوي ط1 دار الشروق. بتصرف.

يكلمها رجل ، والواقع أنه قول لا دليل عليه من قرآن ولا سنة ، بل إن نصوص الوحي تؤيد خلافه ، فالقرآن الكريم يقص علينا من أنباء الأمم والنبيين ما يدل على جواز ذلك فقد كلم موسى عليه السلام الفتاتين ، وتحدث زكريا عليه السلام مع مريم ، وكلم سليمان عليه السلام ملكة سبأ ، وكانت أمهات المؤمنين يكلمن الصحابة من وراء حجاب ويروين الأحاديث ، ويجبن الناس عن فتاواهم دون نكير من أحد ، فقد أدرك الجميع أن المحظور فقط هو " **الخضوع في القول** " أي التكسر في الكلام بحيث يغرى الرجال ، ويفتن أصحاب القلوب المريضة [1] .

فالقول بأن صوت المرأة عورة ، فلا يجوز أن تكلم أحداً أو العكس لا دليل عليه ، وإنما يعكس واقعاً متحجراً ، ورؤية ضيقة متخلفة عن هدى الإسلام الذي جاء انطلاقة إلى الأمام سبقت كل تصورات الأرض وقيمها.

انحرافات مجملة .

ومع هذه الممارسات الخاطئة ، هناك ممارسات أخرى لا تكاد تدخل تحت الحصر لو رحنا نتتبعها ، ولكننا نكتفى بذكر بعضها إجمالاً آملين تفصيل القول فيها في مباحث خاصة بها خلال هذه الدراسة – إن شاء الله تعالى – فمن بين هذه الممارسات :

1- حبس المرأة فلا تخرج من بيتها إلا لضرورة قصوى.

2- منع المرأة من المشاركة في العملية السياسية نائبة أو ناخبة.

3- منع المرأة من المشاركة في الإصلاح الاجتماعي أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر

4- منع المرأة من المشاركة في الحياة العامة قولاً أو فعلاً ، أخذاً بمقولات صح خلافها مثل : شاوروهن وخالفوهن.

5- منع المرأة من أن ترى رجلاً أو أن يراها رجل.

6- منع المرأة من قيادة السيارة ، في وقت أصبح ذلك بالنسبة إليها من الضرورة بمكان.

هذه بعض ممارسات عصور التخلف ضد المرأة ، وبها اكتفى تدليلاً على أن المرأة فعلاً عاشت بالأمس القريب جاهلية تتفق في منطلقاتها وتصوراتها مع الجاهلية الأولى ،

(1) انظر : نفس المرجع صـ 158 . بتصرف.

والإسلام منهما براء ، بروحه السمحة ، ونظرته الرحبة ، وقيمه الربانية ، التى تضع كل شيء في موضعه الصحيح على أساس من الفطرة التى خلق الله سبحانه الأشياء عليها ، دون محاباة أو مجاملة لجنس على حساب الآخر فالرب واحد والأصل واحد ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأعراف:189].

ثالثاً : جاهلية الحضارة الحديثة :

إن وضع المرأة في الجاهليات السابقة سواء قبل الإسلام أو في عصور الانحطاط ، لا يزال – إلى حد كبير – أقل وقعاً ، وأخف وطأة مما حصل لها في الحضارة المعاصرة ، وأعنى بها الحضارة الغربية ، تلك الحضارة التى أصبحت في عصر العولمة تضغط على غيرها من الحضارات والثقافات ، لما لها من نفوذ قوي وحضور جذاب ، ومقولات هي – عند السطحيين – عصرية وتقدمية ، لقد غزت هذه الحضارة البيوت ، وتسللت إلى المخادع حتى لا يكاد ينجو من ضغطها أحد ، ولا يفر من رؤيتها إنسان – إلا ما رحم ربي – وبفعل هذه الحضارة وحضورها ، صارت المرأة الغربية رغم وضعها الذي يدعو للأسى نموذجاً يحتذي ، ومثلاً براقاً يجب أن يتبع.

حضارة القلق :

مما لا شك فيه أن الحضارة الغربية قد سبقت غيرها من الحضارات في الجوانب المادية ، ولا يستطيع أحد من البشر اليوم – مسلم أو غير مسلم – من خارج هذه الحضارة أن يلحق بها ، فقد وفرت هذه الحضارة للإنسان كل شيء ، ولكنها لم تستطع أن تعطيه معنى واحداً من معاني إنسانيته ، وفي هذا يقول الشيخ القرضاوي : لقد بلغت هذه الحضارة القمة في الناحية المادية ، واستطاع إنسانها أن يغزو الفضاء ، ويضع قدمه على سطح القمر ، ولكن القيم الإنسانية والمعاني الأخلاقية لم يستطع هذا الإنسان أن يصل إليها ، فهو رغم كل هذا التقدم ، لا يزال يشعر بالقلق والتوتر ، لأنه يفتقد أشياء كثيرة مثل : المعاني الإنسانية ، العلاقة الاجتماعية الدافئة بين أفراد الأسرة ، وبين الجيران وبعضهم[1] وفي ظل غياب تلك المعاني ، غابت – كذلك – المرأة ، وأصابها ما

(1) انظر : مسلمة الغد صـ 26 . مرجع سابق . بتصرف

أصاب غيرها في هذه المجتمعات من التوتر والقلق ، والإرهاق والعنت ، والإهمال والامتهان ، وهذه هي المرأة في الحضارة الحديثة ، وهي في ذلك بنت مجتمعها ، وهل يتصور مع هذه الأوضاع أن تجد المرأة لنفسها مكاناً لائقاً كإنسانة ؟ أبداً ، وصدق الله العظيم : ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف:58].

قدوة ...ولكن سيئة :

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن المرأة الغربية – مهما بلغت – لا تصلح أن تكون مثلاً ، ولا يمكن أن تصبح (**الأنموذج**) المطلوب للمرأة المسلمة ، وذلك لأسباب عديدة ، لعل أبرزها أنها تخالف المسلمة في عقيدتها وأهدافها وآدابها وتقاليدها ، ولو أخذنا العلاقات الجنسية مثالاً نجد أن المرأة المسلمة في هذا المجال تقيدها فكرة الحلال والحرام. في كل ما تأخذ وما تدع ، وليست طليقة العنان تفعل ما تمليه الرغبة ، وما يفرضه الهوى ، على عكس الغربية التى لا تبالي بشيء ، ولا يحكمها شيء ، فهي لم تعد تبالي بمظاهر الإباحية ، والانطلاق الغريزي المتهور في كل مكان ، حتى في الأماكن العامة وهذا المثال يوضح أن المسلمة ما كان ينبغى لها أن تخدع بالبريق الزائف لحضارة الغرب ، ولا أن تتخذ من الغربية مثالاً ، لأن المنطلق مختلف جداً ، والغاية ليست واحدة ، والخصائص والمقومات متباعدة ، بل بينهما ما بين المشرقين من البعد ، فأين أهواء النفس الساقطة من شريعة الله الحاكمة ؟.

تقليد أعمى :

إن الصورة المؤذية للمرأة الغربية ، والوضع المتردي الذي تعانيه ، كان كفيلا بان يدفع المسلمة بعيداً عن مجالها ، ويردها عن الافتتان بها ، ولكن الذي حدث كان على غير المتوقع ، فقد عمل الغزو الفكري عمله وأثمر ثماره النكدة في حياه المسلمة – وهي معذورة – نظرا لما كان يمارس ضدها من طقوس ومراسم وامتهانات ، تلصق بالدين وليست منه ، وبناء عليه استطاع هذا الغزو أن يخرج نباته الخبيث في مجتمعاتنا ، فأخرج المسلمة من خدرها ودفعها إلى نفق مظلم تقلد فيه الغربية تقليداً أعمى ، وتسير وراءها الشبر بالشبر ، والذراع بالذراع ، فكل " **مودة** " تخرج هناك ، تصبح في نفس اليوم هنا

دينا يتبع ، ولو كانت قبيحة مرذولة ، كمن يدخل وراء غيره جحر الضب رغم ضيقه وظلمته ، وهو ما يصور بدقة فقدان الشخصية ، وذوبانها في غيرها ، وقد رأينا من ذلك ما يندى له الجبين ، وتفر حمرة الخجل خجلاً منه.

صور وأمثلة :

ومن بين الصور التى انتقلت – كالعدوى – من المرأة الغربية إلى المرأة المسلمة بفعل الضغط القوى للحضارة الغربية ، ومن منطلق تقليد المغلوب للغالب ما شاهدناه من محاولات الخروج المستمرة على الفطرة ، فإذا بالمرأة تتمرد على فطرتها التى فطرها الله عليها، لا تريد أن تعترف بالفوارق البيولوجية الطبيعية بين الرجل والمرأة ، وأن هذا لم يكن عبثاً ولا اعتباطاً ، ولكن هذا الخلق كان لحكمة بعينها ، فاستجاب النساء للشيطان الذي أمرهن ليغيرن خلق الله ، فرأينا المرأة تلبس لبسة الرجل كما رأينا من الرجال من يلبس لبسة المرأة ، وقد لعن رسولنا الكريم المتشبهات من النساء بالرجال ، ورأينا الكاسيات العاريات [1] ومن باب التقليد الأعمى والتبعية الشديدة ، والثقة في الحضارة الغربية ، رأينا من المسلمات من يرفض أحكام الله ، ويرد على الإسلام منهجه ، وفي هؤلاء وأمثالهن يقول الشيخ القرضاوي : رأينا من النساء في ديارنا من يرفض أحكام الشريعة جهرة ، ومنهن من لا يعلن عن ذلك ، ولكن يفسرنها بأهوائهن تفسيرا يجعلها تابعة للتقاليد والأوضاع الغربية ، وكان منهن من ترفض الطلاق ، ومنهن من ترفض تعدد الزوجات ، ومنهن من ترفض قوامة الرجل ، ومنهن من ترفض دفع الرجل للمهر ،ومنهن من ترفض حكم الله في الميراث [2] ، وهؤلاء لا شك قلة لا وزن لها ، ولكن الإعلام يعلى صوتهن ويضخم دورهن فيحسب أنهن على شيء وما هن كذلك.

هذه أمثلة فقط تبين عمل الغزو الفكري والثقافي في عقل المرأة ، وكيف أنه – للأسف – استطاع أن يخلق مشكلات من لا مشكلات ، وأن يبذر بنات الشك في عقل المسلمة ، تجاه دينها وشريعتها ، فصارت تتلقى من الغرب بعد أن كانت تتلقى من

(1) انظر : أمتنا بين قرنين صـ 160 ، مرجع سابق.

(2) انظر : نفس المصدر . بتصرف.

السماء ، وصارت تقتدي بنماذجه ، بعد أن كان الأنموذج الأوحد والأكمل في حياتها هو النبي ﷺ .

حضارة في قفص الاتهام :

إن حضارة الغرب كما تقدم ، ليست الأنموذج الذي يحتذي ، ولا النجوم التى يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، لا في مجال المرأة ولا غيره من المجالات ، فليس هذا مكانها ولا مقامها ، إنما مكانها الطبيعي هو قفص الاتهام ، وليس هذا افتراء عليها ، ولكنها فعلاً أفرزت أوضاعاً مختلة ، وأثمرت في حياة الناس ثماراً نكدة ، باعتراف أهلها والمقربين منها ، والمتابعين لها ، وهذه نظرة بسيطة من طرف خفي على بعض الثمار النكدة لهذه الحضارة:

1- **الانحلال الخلقي :**

بات واضحاً للعيان أن انحلال الأخلاق ، وانطلاق الشهوات ، وضياع العفة أصبح السمة الغالبة لهذه الحضارة – بشهادة أهلها – وحسبك ما قاله الرئيس الأمريكي الأسبق " **كيندى** " وهو يصف الشباب الأمريكي : إن الشباب الأمريكي مترف منحل ، مائع غارق في الشهوات ، وبين كل سبعة يتقدمون للتجنيد ، يوجد ستة غير صالحين ، بسبب انهماكهم في الشهوات ، ثم أكد أن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا ، لقد بات واضحاً تماماً أن الحضارة الغربية لا مجال فيها للعفة ، ولا للطهر ولا للنقاء ، لأن قاموس المعاملات اليومي لها ، لا يشتمل على هذه المصلحات ، والنتيجة إذن : أمراض سرية . إيدز ، شذوذ ، وغير ذلك مما صار معروفاً ومألوفاً.

2- **التفسخ العائلى :**

وقد بدا ذلك في مظاهر يمكن إجمالها في الآتي :

أ- آباء وأمهات يبيعون أطفالهم الشرعيين.

ب- أبناء يفتقدون معاني الأبوة والأمومة لاستغراق الأبوين في العمل.

ج- انتشار ظاهرة البيوت المنهارة لكثرة حوادث الطلاق.

ء – انتشار مصاحبة الكلاب ، كبديل للإنسان بسبب التفسخ والتشتت.

هـ- انتشار القطيعة وتفشيها بين الآباء والأولاد.

و- ظهور طوائف من الرجال يعيشون عالة على أزواجهم.

ل – بروز ظاهرة " **الأم المستأجرة** " – استئجار المرأة رحم غيرها – حتى لا تتعرض لمتاعب الحمل والوضع.

ن – الإعراض التام عن الزواج اكتفاء بالممارسات الخاطئة.

هذه وغيرها بعض مظاهر التفسخ والانحلال في المجتمع الغربي ، مما يؤكد أنه ليس المجتمع المنشود ، وأن مدينته ليست المدينة الفاضلة التى يسكن الإنسان في ظلالها.

3- **القلق النفسي.**

ولعل أمريكا هي المثال الأوضح لهذه الآفة التي أفرزتها الحضارة الغربية ، فكل شيء فيها ميسر ، وكل أمر متاح ، وكل مطلوب موجود ، إلا السعادة ، لقد تحولت هذه الحضارة وتلك الانجازات غطاء جميلاً لحالة من التعاسة والشقاء ، يقول الأديب الأمريكي " **جون شتاينبك** " : إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها ، وأن لديها أشياء كثيرة ، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية ، وفي هوليود ، مدينة الفن والنجوم ، ومع وجود كل أسباب المتعة والراحة والرفاهية ، إلا أن الشقاء واضح ، والبؤس هو سيد الموقف ، فالجيل الجديد من الشباب يهرب إلى الأماكن الضيقة القذرة المزدحمة ، وتنتشر بينه الجرائم ، جرائم المخدرات والسموم والسطو والاعتداء والخطف والاغتصاب ، يقول أحد مفكريهم : إن الإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشباب في أمريكا ، ولذلك ظهرت حركات للتمرد على تلك الأوضاع في صورة الخنافس والهيبيز وغيرها ، كما أن من مظاهر القلق والاضطراب والحيرة ، ذلك الاكتئاب الذي يحول حياة الإنسان إلى جحيم ، ووجوده إلى ضيف ثقيل غير مرغوب فيه ، ويبرز هذا الأمر واضحاً عند نجمات السينما مثل : مارلين مونرو ، وبراجيت باردو ، حيث كانت كل منهما مثلا واضحا للبؤس والشقاء ، حتى أقدمت الأخيرة على الانتحار ولم تنجح محاولتها ، وقد قالت في تصريح لها بعد ذلك : إنها لم تشعر بالراحة النفسية يوما ما لدى وقوفها أمام آلة التصوير ، ومن مظاهر المرض النفسي ، والقلق المنتشر بين أجيال هذه الحضارة كذلك : ظاهرة " **الانتحار الجماعي** " عند الشباب والمراهقين ، تقول خبيرة في منع وقوع حوادث الانتحار : لا أظن أنهم – أي الشباب – يفكرون حول تحولهم إلى

موتى ، بل كل ما يفكرون فيه عند الانتحار ، هو التوصل إلى وسيلة ما لإنهاء الألم ، وحل المشكلة أو المأزق الذي يجدون أنفسهم فيه ، إن هذا المرض النفسي وما يصاحبه من أعراض كالقلق والاضطراب والحيرة والانتحار ، سببه واضح لكل ذي عين تبصر، وقلب يعي ، وهو الحرمان : الحرمان من الحب ، الحرمان من السكن ، الحرمان من العواطف النبيلة التي تظلل بروحها الأسرة ، وتحكم بخيوطها الحريرية طبيعة العلاقات بين أفرادها.

4- **الاضطراب العقلي**.

وليت المأزق – مأزق الحضارة الغربية – توقف عند ماتم ذكره من انحلال خلقي ، وتفكك أسرى ، وقلق نفسي ، بل تعدى ذلك كله إلى النتيجة الطبيعية والمتوقعة ، وهي انتشار الأمراض العقلية بصورة لا تخفى ، إن كل الأشياء التى يملكها الإنسان هناك عجزت عن أن توفر له الأمن والراحة والسكينة ، وإنما زادته خبالاً وفساداً ، حتى امتلأت المصحات النفسية والعقلية بالنزلاء ، يقول البروفسور " **ألكسيس كاريل** " في كتابه : " **الإنسان ذلك المجهول** " : من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة ، ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تضج بنزلائها وقد بلغت الإحصاءات أرقاماً مفزعة ، حتى قدرها بعضهم بقوله : إن شخصاً من كل 22 شخصا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر.

إنها شهادات خطيرة – تصدر من أهلها – تطعن هذه الحضارة في كبريائها وتصيبها في الصميم ، وترد الذين يلهثون خلفها على أعقابهم ، ليرجعوا إلى فطرتهم قبل أن يبتلعهم الطوفان.

5- **الجريمة والخوف**.

إن مجتمعاً يصاب بكل تلك الآفات السابقة ، من أمراض خلقية ونفسية وعقلية ، لا شك سيكون مسرحاً كبيراً للجريمة والخوف ، ليذوق الإنسان فيه ثمار ما غرست يداه، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[الشورى:30] وبالفعل فقد انتشرت الجريمة في المجتمع الأمريكي بصورة غير مسبوقة ، فقد جاء في تقرير تحت عنوان :

الخوف على أمريكا .

وفي مجلة العربي الكويتية ما يلي : الجريمة تجتاح أمريكا ، الجريمة بكل أنواعها ، في كل مكان ، في المدن ، في الريف والضواحي الهادئة ، في الشمال ، في الجنوب ، في الشرق ، في الغرب ، جرائم من كل نوع ، قتل ونهب ، سطو واعتداء ، سرقات بالإكراه ، واغتصاب تحت تهديد السلاح ، ثم يقول التقرير : لقد تعدت الجريمة في أكثر من خمس وعشرين مدينة أمريكية كل الأرقام التى سجلت على مدى السنوات العشر الأخيرة، وفي دراسة عن أثر الجريمة على الحالة النفسية للأمريكيين أجريت على أكثر من ألف شخص ، خرجت الصورة مرعبة **على النحو الآتي** :

- أربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون أنهم معرضون للقتل والسرقة والاغتصاب وهو شعور دائم.
- الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع ، 52 ٪ في المدن الكبيرة ، يعيشون في خوف دائم ، وتهبط إلى 41٪ في المدن الصغيرة ، وإلى 31٪ في الضواحي والمناطق الريفية.
- 52٪ من الذين أجريت الدراسة عليهم ، يملكون أسلحة للدفاع عن أنفسهم.
- تسعة من كل عشرة مواطنين ، يغلقون أبوابهم بالضبة والمفتاح ، ويتعرفون على أي شخص قبل أن يفتحوا له.
- سبعة من كل عشرة مواطنين ، يغلقون أبواب سياراتهم من الداخل أثناء القيادة.
- نصف الذين أجريت عليهم الدراسة يخرجون بملابس عادية حتى لا يلفتوا أنظار المجرمين.
- 63 ٪ يؤيدون منح البوليس سلطة أكبر ، تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم.
- أكثر من النصف لا يمانع في فرض ضرائب زائدة ، بشرط أن تذهب لدعم الشرطة في حمايتهم[1].

(1) يراجع في ذلك : الإسلام وحضارة الغد صـ 32 وما بعدها . د / يوسف القرضاوي ط مكتبة وهبة ، وكذلك : مركز المرأة في الحياة الإسلامية صـ 59 وما بعدها للشيخ القرضاوي ، مكتبة وهبة . بتصرف كبير.

إن هذه الأرقام[1] صورة للرعب الذي يعيشه المجتمع الأمريكي – مجتمع الحضارة – ثم تقول الدراسة في نهايتها : إن أمريكا تعيش اليوم في قبضة خوف جديد ، تزداد ضغطا مع الوقت ، الخوف من أن تقع ضحية الجريمة ، الخوف من الإصابات الجسمانية، الخوف من ضياع ما يملكون ، إن الأمريكيين اليوم يعيشون في خوف ، بعضهم من بعض.

هذه هي الحضارة الحديثة ، وتلك ثمارها النكدة ، التى تلقى بظلالها القاتمة على واحدة من أعظم دول العالم اليوم – بل أعظمها على الإطلاق – أمريكا ، وارثة الحضارة الغربية ، والتى وصلت بها إلى مرحلة التمام ، الذي ليس بعده إلا التحول إلى الجهة الأخرى ، نحو الهبوط ، والتحلل والذوبان وتلك سنة الله تعالى في خلقه.

الطوفان الغربي والمرأة :

وبعد تلك الصورة المرعبة التى استعرضنا مفرداتها ، يحق لنا أن نتساءل : أين المرأة في هذا الطوفان ؟ وما موقعها فيه ؟ والإجابة ستكون بكل قطع واضحة ، لقد ضاعت في الزحام ، ودهسها قطار هذه المدنية الزائفة ، فصارت سلعة رخيصة ، تباع بثمن بخس دارهم معدودة ، في أسواق المتعة واللذة ، لتتساوى في ذلك مع أخوات لها من قبل في الحضارات السابقة ، والزائر لهذه البلاد – بلاد الغرب – لا يصعب عليه أن يلاحظ الأصوات التي تصرخ من ظلم المرأة في هذه المجتمعات : فهي تذهب إلى عملها ، وتعود منه لتبقى في غرفتها ، وهي تعمل كالرجل ثم تأخذ أجراً أقل منه ، وهي تنام مع من تشاء ، ولكنها وحدها تتحمل الثمن ، إما " 150" جنيها لعملية إجهاض ، أو أن تعيش لتربي طفلاً غير شرعي ، والمرأة الفرنسية لا تزال تابعة لزوجها شخصا واسماً ، ونظام الإرث الانجليزي يسمح للزوج أن يوصى بثروته لمن يشاء ، حتى القطط والكلاب ، وقد تحرم المرأة من حقها في مال زوجها ، والروسية تعمل كذلك ، ولكن بقسوة أكثر ، ولا أنوثة تبدو عليها ، ولا مساحيق على وجهها ، تمسك بالمنجل والجرافة والمكنسة ، وتعمل في البناء وكنس الشوارع [2] ، والتتبع يصيب المرء

(1) يلاحظ أن هذه الإحصائيات قديمة نسبياً .

(2) انظر : محاضرات في الثقافة الإسلامية صـ 176 الأستاذ د / محمد أحمد جمال ، مرجع سابق بتصرف.

بالغثيان إشفاقاً على هذه المسكينة التي طحنتها أنياب هذه الحضارة التي لا تملك قلباً فيشعر ، ولا نفساً فتشفق.

كلمة أخيرة :

هذه هي الحضارة الحديثة ، وهذا هو موقع المرأة فيها ، ولعل وصفها بالجاهلية ليس من باب المبالغة في شيء ، وإنما هو الوصف الذي ينطبق عليها تماماً ، فوجه الشبه بينها وبين الجاهليات القديمة واضح ، في امتهان المرأة وإذلالها وبهذا اكتملت الصورة ، صورة المرأة في الجاهليات الثلاث ، جاهلية ما قبل الإسلام ، وجاهلية عصور التخلف ، والجاهلية المعاصرة ، واتضح أن القاسم المشترك بينها جميعا هو العبث بهذا المخلوق الضعيف ، واللهو بإنسانيته وكرامته من أجل المتعة واللذة ، وهذه الصورة نقدمها إلى المرأة المسلمة اليوم لتدرك ماذا يراد بها ، ولتعلم أن هؤلاء الذين يخدرون مشاعرها ويدغدغون عواطفها بشعاراتهم ، إنما يجرونها إلى حتفها ، ويسوقونها إلى مضجعها ، وعندها لن تجد يداً حانية تمسح آلامها ، ولا صدراً مشفقاً يضمد جراحها ، فتندم ولات حين مندم.

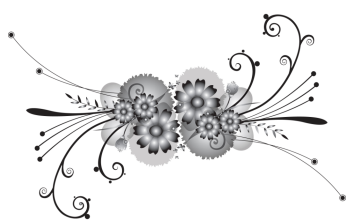

obeikan.com

المبحث الثاني
المرأة والإسلام

تمهيد :

بعد أن استعرضنا وضع المرأة في الجاهليات المختلفة ، يصبح من اللازم علينا أن نلقى الضوء على وضع المرأة في الإسلام معتمدين في ذلك على الوحي أولاً ثم على الواقع التاريخي المشرق لممارسات المرأة المسلمة في عصر الرسالة ، وقرون القدوة الصالحة ثانياً ، وهذه الرؤية الوسطية – لا شك – تفضح ما عداها من الممارسات ، وتكشف زيفها ، وتقدم التصور الإسلامي الرائع في بهائه وجلاله ورونقه.

الأصل الواحد :

أشرق صبح الإسلام ، وبعض الناس ينكر كون المرأة إنسانة ، وبعضهم يرتاب في ذلك ، وبعضهم يتكرم عليها فيعترف بإنسانيها ، ولكنهم يؤكدون أنها لم تخلق إلا لخدمة الرجل ، جاء الإسلام والصورة هكذا ، فعدل بربانيته هذا العوج ، وصحح بموازينه هذه الخلل ، وكان من فضله على الناس عموما – وعلى المرأة على وجه الخصوص – أن أكد إنسانيتها ، واعتبرها إنساناً كريما له كل ما للرجل من حقوق ، فهما فرعان من شجرة واحدة ، وأخوان لأب واحد هو آدم ، وأم واحدة هي حواء ، فهما متساويان في أصل النشأة والخلقة ، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة ، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:1] فهما معا من نفس واحدة ، وأصل واحد ، ويحملان خصائص الإنسان بما لها من تكريم وجلال واحترام.

بعضكم من بعض:

إن الزوجية سنة من سنن الله عز وجل في خلقه ، فهي سنة إنسانية ، وسنة كونية ، ولقد خلق الله عز وجل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأقام قانون الوجود كله على الزوجية، في الحيوان والنبات والجماد ، حتى الذرة التي هي أصغر وحدة من وحدات الوجود ، توجد بها شحنة موجبة وأخرى سالبة تمثلان الذكورة والأنوثة ، وهذا القانون هو ما عبر عند الله عز وجل بقوله ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[الذاريات:49] ، لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يخلق من كل شيء في الوجود زوجين ، ليتفرد سبحانه بالوحدانية : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] ، ومعنى قيام الكون على الزوجية ، أن المرأة والرجل شيء واحد ، فهو منها وهي منه ، وإن كانت الوظائف مختلفة يقول سبحانه : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران:195] ومعنى ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ أن المرأة من الرجل، والرجل من المرأة هو يكملها ، وهي تكلمه ، فلا غنى لأحدهما عن الآخر ، على سنة الزوجية المبثوثة في الكون ، وليست المرأة ضد الرجل ولا خصماً له ، كما يفهم من تصور الحضارة الغربية للمرأة.

إنها رؤية واضحة غير مسبوقة ولا ملحوقة ، تقوم على الأصل الواحد للرجل والمرأة ، في إطار قانون الزوجية ، وبما يملكه كل منهما من خصائص لا تتوفر للآخر ، ليكون التكامل والتعاون والتناسق.

وحدة التكليف:

وقد اعتبر الإسلام المرأة مخلوقاً مكلفاً مثل الرجل ، مطالباً كالرجل بعبادة الله سبحانه ، وإقامة دينه ، وأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده ، والدعوة إليه أمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، ولأجل ذلك رأينا خطاب الشارع يشمل الرجل والمرأة ، إلا ما دل على أنه يخص أحدهما دون صاحبه ، فإذا قال الله تعالى: **" يا أيها الذين آمنوا "** أو قال " يا **أيها الناس** " فالخطاب لهما معا دون نزاع ، ومن طريف ما يروى هنا : أن أم سلمة سمعت النبي ﷺ يقول : يا أيها الناس ، وكانت في بعض حاجتها ، فهرولت ولبت النداء ، فلما تعجبوا من سرعة تلبيتها قالت : أنا من الناس. فنحن دائماً نلاحظ المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الخطاب وهذه بعض مظاهرها :

– في التكاليف الدينية والاجتماعية : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ [التوبة:71]

- في التكليف والتدين والعبادة : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:35] وهو ما يؤكد المساواة التامة بين الرجل والمرأة أمام الله تعالى في التكليف والجزاء.

- في قصة آدم يتوجه التكليف لهما على السواء : ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:35]

- في الجزاء والمصير : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران:195] (1)

- إنها إذن المساواة التامة في كل شيء تكليفاً وجزاء ، لأن الأصل واحد ، والحياة شركة ، والموعد الله.

هذا هو التكريم :

هذا هو التصور الرائع لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فهي منه وهو منها ، الآمال واحدة ، والآلام واحدة ، والأصل واحد ، والمصير واحد ، هذه الرؤية السباقة، لن تجد لها مثيلاً ، ولا عنها بديلاً ، إن أرادت البشرية اليوم أن تعود إلى فطرتها ، لتستريح من شقاء ، وتستقر من قلق ، وتأمن من خوف ، وفي إطار هذه الرؤية ، يتعامل الإسلام مع المرأة في عدة صور ، وذلك على النحو الآتي :

أولاً : باعتبارها أماً .

ثانياً : باعتبارها بنتاً .

ثالثاً : باعتبارها زوجة.

في هذه المجالات الثلاثة ، يظهر مدى اهتمام الإسلام بالمرأة ، وتكريمه لها ، حيث يضعها في أفق عال ، وقمة سامقة ، لا يطار لها على جناح ولا يسعى إليها على قدم ، وهذا هو شأن الإسلام دائماً في كل تصوراته وأطروحاته.

(1) وانظر في ذلك : فقه الدولة في الإسلام . صـ 161 د/ يوسف القرضاوي ط 2 ، دار الشروق. بتصرف.

أولاً : المرأة أماً .

يبلغ الإسلام بالمرأة مبلغاً عظيماً ، ويحلق بها في سماء لا تطاولها سماء ، عندما يتعامل معها باعتبارها أماً ، ولو رحت تبحث عن وضع إلهي أو بشرى كرم المرأة ، وأعلى شأنها ، ومنحها من التكريم ما لم يمنحه لغيرها – باعتبارها أماً – فلن تجد ذلك إلا فى الإسلام ، وإن حدث – وهذا مستحيل – فسيكون بصورة لا ترقى بحال إلى مستوى التصور الإسلامي في جماله وكماله ، فقد أكد – الإسلام – الوصية بها ، وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته ، كما جعل حقها أوكد من حق الأب لما تتحمله من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية ، وهذا ما يقرره القرآن الكريم ويكرره في مواطن كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:14]

السنة النبوية والمرأة :

وإذا كان الخطاب القرآني يعج بهذه التوصيات والتوجيهات ، فإن السنة النبوية وهي الشارحة والمفصلة ، قد أعطت المرأة – باعتبارها أماً – حقها من التكريم والإكبار ، والنصوص في ذلك لا تكاد تعد وإنما أكتفى بواحد منها يشير إلى ما وراءه ، ويدل على ما تحمله من توجيهات لا ترقى إليها كل نظريات الأرض مجتمعة ، ولو حاول البشر أن يأتوا بمثلها أو بشيء منها ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن مصدرها الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ، أن رجلاً سأل النبي ﷺ **" من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك. قال ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أمك. قال ثم من ؟ قال : أبوك** [1] . **فبر الأم هنا مقدم على بر الأب ثلاث مرات ، والبر هو "** إحسان عشرتها وتوقيرها ، وخفض الجناح لها ، وطاعتها في غير معصية ، والتماس رضاها في كل أمر ، حتى الجهاد – إذا كان فرض كفاية – لا يجوز إلا بإذنها ، فإن برها نوع من الجهاد .

من عجائب الإسلام :

ومن عجائب الإسلام التي لا تنتهي ، وروعته التي لا تنقضي في مجال الاهتمام بالمرأة – باعتبارها أماً – أنه يدعو إلى هذا البر ويؤكده ، ويحث على إكرام الأم وتبجيلها ، ليس

(1) الحديث أخرجه الإمام مسلم.

فقط وهي مسلمة ، بل إنه في هذا المجال يقفز بالعقول البشرية ، والقلوب قفزة لا يلحق فيها ، فإذا به يأمر ببرها ولو كانت على غير الدين ، فيوصى بها مشركة ، كما أوصى بها مسلمة ، فقد أخرج الشيخان من حديث أسماء بنت أبي بكر : أنها سألت النبي ﷺ عن صلة أمها المشركة ، وكانت قدمت عليها ، فقال لها ﷺ : نعم صلى أمك[1] ، إن الإسلام هنا يحترم المشاعر الفطرية ، والعواطف البشرية ، فلا يمنع الإنسان من أقرب الناس إليه وألصقهم به ، وأعظمهم حقاً عليه ، بل يأمر بالبر والصلة ، والسمع والطاعة ، إلا في شيء يخالف ما أمر الله ، ويصطدم بمنهجه ، ويتعارض مع الحق الذي شرعه لعباده.

أمثلة خالدة :

وقد وضع القرآن الكريم بين أيدينا أمثلة رائعة ، ونماذج خالدة باقية ، لأمهات صالحات ، كان لهن أثر بارز في تاريخ البشرية ، وحضور واضح في ظلال الإيمان ، ومن هؤلاء : أم موسى عليه السلام حين استجابت لوحي ربها ، وألقت في اليم فلذة كبدها، وهي آمنة مطمئنة ، واثقة في وعد الله لها يقول تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

[القصص:7]

وكذلك أم مريم حين حملت ، ونذرت لله ما في بطنها ، داعية وراجية أن يتقبل منها ، ثم مريم التى جعلها الله وابنها آية ، وكانت مثالاً للطهر والنقاء ، والقنوت والرجاء ، والتصديق بكلمات الله ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:12]

الأم التى يريدها الإسلام:

أما الأم المؤمنة التى يريدها الإسلام فهي التى تحسن تربية أبنائها ، فتغرس فيهم الفضائل وتبغض إليهم الرذائل ، وتعودهم طاعة الله ، وتشجعهم على نصرة الحق ،

(1) الحديث أخرجه الإمام البخاري.

ولا تثبطهم عن الجهاد استجابة لعاطفة الأمومة في صدرها ، بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة ، وحسبنا الخنساء مثلا ، تلك المرأة الصالحة ، والأم المؤمنة ، التى حرضت بنيها الأربعة – في القادسية – على الجهاد ، وأوصتهم بالصبر والثبات والإقدام ، فلما انتهت المعركة ، ونعوا إليها جميعاً ، لم تقنط ولم تجزع ، وإنما قالت في ثبات تام ويقين باهر : الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم في سبيله.

ثانياً : المرأة بنتا :

جاء الإسلام والعرب يضيقون بالبنت ، ويتشاءمون بميلادها ، مبررين ذلك بأنها : لا تطعم من جوع ولا تؤمن من خوف ، ويصور هذا الاعتقاد أحدهم بقوله : ما هي بنعم الولد ، نصرها بكاء ، وبرها سرقة ، يريد أنها لا تنصر أباها إلا بالصراخ والصياح، لا بالقتال والسلاح ، وإذا أرادت بره فإنها تسرق من مال زوجها ، ولذا كان من طقوسهم المعروفة دفنها حية ، خوفا من فقر واقع أو متوقع ، أو عار تجلبه فيما بعد فتلحق بأهلها ذل الدهر وهوان الأبد ، وقد ندد القرآن الكريم بهذه المفاهيم ، وخطأ هذه التصورات الفاسدة ، وأنكرها أيما إنكار ، فقال مهدداً ومخوفاً : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:8،9].

حملة مضادة :

كان هذا هو التصور السائد عند العرب عن البنت ، فإذ بالقرآن الكريم يشن حملات مضادة لتصحيح هذه الأوضاع الفاسدة ، وتعديل هذه الموازين المختلة ، فشن غارات قوية على أولئك الذين يقتلون أبناءهم – إناثاً وذكوراً – في جحود واضح وقسوة بالغة لا تصدر قط عن بشر ، له قلب يعى ، ونفس تحس وتشعر ، وقد تكرر ذلك في مواضع من القرآن منها قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:140]، ثم بين القرآن بعد ذلك أن البنت كالولد ، فهما معا هبة من الله عز وجل الذي ينوع الخلق بعلمه وحكمته يقول سبحانه : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ [الشورى:50]، وبعد ذلك يبين القرآن أن من البنات من تكون أفضل من الذكور ، وأعظم أثراً وأخلد ذكراً ، ويضرب أمثلة على ذلك منها

ما جاء عن مريم عليها السلام التى اصطفاها ربها وطهرها ، واصطفاها على نساء العالمين ، وأنبتها نباتا حسناً ، وتقبلها بقبول حسن.

السنة ورعاية البنت :

ثم تأتى السنة لتوضح منزلة البنت ، وتؤكد في ذلك ما قرره القرآن فجعل الرسول ﷺ الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته ، ويصبر على تربيتهن ، وحسن تأديبهن ، ورعاية حق الله فيهن حتى يبلغن أو يموت عنهن ، وجعل منزلته بجواره ﷺ في دار النعيم المقيم وهذا واحد من النصوص النبوية – على كثرتها – يشير إلى ما وراءه ، يقول النبي ﷺ : من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة ، أنا وهو . وضم أصابعه ، وقد رواه الإمام الترمذي بلفظ : من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين ، وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها [1] .بهذه النصوص القرآنية والنبوية ، لم تعد البنت وافداً ثقيلاً ، يخيم الهم عند استقباله ، ويرجى التخلص منه عندما تسنح الفرصة ، بل صارت نعمة تشكر ولا تكفر ، ترجى وتطلب ، لا ترفض وترد ، لأنها سبب لكل خير ، وطريق لثواب الله ، وحسن جزائه وجميل عطائه.

رعاية حتى الزواج:

ومن تمام رعاية الإسلام للبنت ، أنه أوصى بحسن رعايتها ، والقيام على تربيتها ، وحسن تأديبها ، حتى إذا كان الزواج ، وجاء من يطلبها زوجة له وشريكة لحياته ، فعلى الأب أن يسعى في ذلك ، متحرياً أيما تحر ، ليضع ابنته عند من يصون ودها ، ويحترم حقها ، ويكرمها ويحفظ عهدها ، على أن يتم ذلك بالتراضي ، وقد ناقش العلماء الخلاف حول زواج البنت ، وهل تزوج نفسها ، أم لا بد من موافقة وليها ، وملخصه ما يأتي : فالأولى والأوفق أن يتم الزواج بموافقة جميع الأطراف :الأب والأم والابنة ، حتى لا يكون هناك مجال للقيل والقال ، والخصومة والشحناء ، وقد شرع الله الزواج مجلبة للمودة والرحمة ، والمطلوب من الأب أن يتخير لابنته الرجل الصالح الذي يسعدها ، ويسعد بها ، وأن يكون همه الخلق والدين ، لا المادة والطين ، وألا يعوق زواجها إذا حضر كفؤها ، وبهذا علم الإسلام الأب أن ابنته " **إنسان** " قبل كل شيء ،

(1) الحديث أخرجه الإمام أحمد .

فهي تطلب إنساناً مثلها ، وليست " **سلعة** " تعرض وتعطى لمن يدفع نقوداً أكثر ، كما هو شأن كثير من الآباء الجاهلين والطامعين إلى اليوم [1].

ثالثاً : المرأة زوجة .

وكما اهتم الإسلام بالمرأة أماً وبنتاً ، فكذلك اهتم بها زوجة ، وأكرمها وأوصى بها خيراً ، وقد كان الإسلام في ذلك بدعاً في التصور والتشريع ، حيث كانت بعض الديانات والمذاهب قبله تنظر إلى المرأة باعتبارها رجساً من عمل الشيطان ، وما يجب على الرجل إلا أن يفر منه ، وأن يلجأ إلى حياة التبتل والرهبنة خوفاً من شرها وفسادها وشؤمها ، وكان البعض يعتبرها في أحسن حالاتها مجرد أداة للمتعة وآلة للخدمة ، وهي كلها تصورات مريضة وأفكار منحرفة ، ورغم ذلك كانت تجد من الناس من يعتقدها ويؤمن بها ، لأنها في أحيان كثيرة كانت تلبس رداء الدين وتتزيا بزيه .

مظاهر التكريم :

لقد كان من تكريم الإسلام للمرأة كزوجة أنه أبطل الرهبنة ، ونهى عن التبتل ، وحث على الزواج واعتبر الزوجية قانوناً للكون ، وآية من آيات الله ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:21] ، وكما جعل الإسلام الزوجة الصالحة خير نعمة يحصلها الرجل في حياته ، بعد تقوى الله عز وجل ، فقال ﷺ : الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة [2]، كما رفع الإسلام قيمة المرأة باعتبارها زوجة ، وجعل قيامها بحقوق الزوجية جهاداً في سبيل الله ، فقد جاءت وافدة من النساء فقالت : كتب الله الجهاد على الرجال ، فإن أصابوا أجروا وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، فما يعدل ذلك من أعمالهن ؟ فقال ﷺ : طاعة أزواجهن والقيام بحقوقهم ، وقليل منكن من يفعله [3] .

---

(1) انظر : مركز المرأة في الحياة . صـ 88 ، مرجع سابق.

(2) الحديث أخرجه الإمام مسلم .

(3) جزء من حديث أخرجه الإمام الطبراني .

حقوق ثابتة :

ولم يكتف الإسلام بذلك بل قرر للزوجة حقوقاً ثابتة ، يلتزم بها المسلم ديناً وعقيدة ، يدفعه إلى **ذلك أسباب ثلاثة :**

1- إيمانه وتقواه

2- حكم الشرع وإلزامه.

3- ضمير المجتمع من حوله.

ومن بين هذه الحقوق ما يأتي :

أولاً : الصداق .

وهو مال يدفعه الرجل للمرأة إشعاراً منه برغبته فيها ، قال سبحانه : ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ [النساء:4] ، فأين هذا من بعض الديانات التى تدفع فيها المرأة للرجل، مع أن فطرة الله تعالى أن المرأة طالبة وليست مطلوبة.

ثانياً : النفقة .

فالرجل مكلف بتوفير كل شيء لامرأته : المأكل ، الملبس ، السكن ، العلاج. يقول ﷺ ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف [1] ، والمعروف ما تعارف عليه الناس بلا إسراف أو تقتير.

ثالثاً : المعاشرة بالمعروف.

وهو حق جامع ، يتضمن إحسان المعاملة ، في كل علاقة بين المرء وزوجه قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النساء:19]، وكان النبي ﷺ هو المثال في ذلك ، وسيرته مع أزواجه خير دليل [2].

استقلال الزوجة :

وقد جعل الإسلام للزوجة مكاناً ومقاماً ، وحافظ على شخصيها المستقلة ، ولم يأمرها أن تذوب في شخصية زوجها بالزواج ، كما في بعض التقاليد الأخرى ، التى

(1) الحديث أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه .

(2) انظر : ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده صـ 339 وما بعدها د / يوسف القرضاوي ط1 مكتبة وهبة بتصرف.

تجعل المرأة تابعة لزوجها في كل شيء ، حتى في اسمها ولقبها ، فلا تعرف إلا بأنها زوجة فلان ، لقد احتفظ الإسلام للمرأة بشخصيتها ، ومن ثم عرفنا نساء النبي ﷺ بأسمائهن : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وهكذا رضي الله عن الجميع ، وكذلك احتفظ الإسلام للمرأة بشخصيتها المدنية ، فلا تفقد شيئاً منها بالزواج ، فلها أهلية للعقود والمعاملات ، تبيع وتشترى ، وتؤجر وتستأجر ، وتهب وتتصدق وتوكل وتخاصم ، وهذا مقام لم تصل إليه المرأة في أي وضع حضارى سابق على الإسلام أو لاحق له ، حتى في الحضارة الغربية التى يتباهون بها وبمنجزاتها في عالم المادة وحقوق الإنسان.

وأخيراً كلمة :

هذا هو الإسلام ، وهذه هي رؤيته في قضية المرأة ، وهي بهذا الشكل وبذلك التصور الذي طرحناه ، غير مسبوقة ، ولا ملحوقة ، وللمرأة المسلمة اليوم – قبل غيرها – نسوق هذه الصورة المشرقة ، حماية لها من عبث المحرفين ، وصوناً لعقلها من المصادر الملوثة التى لا تفتأ تردد الشبهات ، وتكيل الاتهامات ، طمعاً في إحداث شرخ في علاقة المسلمة مع ربها ، والوقيعة بينها وبين دينها ، وعلى الرغم من أن شيئا ما ، من ذلك قد حدث ، إلا أننا لا زلنا نؤمن ونعتقد أن المسلمة ، سوف تفك قيود التبعية ، وتحطم أغلال التقليد ، لتعود إلى سمائها التى وضعها الإسلام في آفاقها ، عزيزة كريمة ، الأمر الذي نلمحه خلال الأفق القادم ، مع أجيال الصحوة المعاصرة يملأ النفوس أملاً، والقلوب تفاؤلاً وثقة في نصر الله ، الذي يتساءل الناس – في زمن التشرذم والغثائية – متى هو ؟ : قل عسى أن يكون قريباً ، وما ذلك على الله ببعيد .